التربية الخلقية

سبيل إصلاح الفرد والجماعة

بقلم الأستاذ الكبير محمد أحمد جاد المولى بك
المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف

الخلق الكريم روح المجتمع الصالح ، وقوام الحياة الطيبة ، وهادى الناس إلى البر ، والمرتق بالنفوس إلى سماء الطهر ، والسراج الوهاج فى ظلمات الشدائد ، وسفينة النجاة فى بحر الحياة المضطرب ، والمثل الأعلى إلى يوم الدين .

هو الثروة لمن لا ثروة له ، بل هو الملك العريض فى ظلاله العزة والكرامة وغنى النفس والاطمئنان المنشود ، والسعادة التى تحرق شوقا إليها الفلاسفة ، وسعوا لدركها السعى كله : فمنهم من ظفر بنصيب منها ، ومنهم من عزت عليه .

حصن الله رسله بالخلق الكريم ، وجعله أبرز شعار للأماثل من خلقه ، والأمجاد من بنى الإنسان . هو ثمار الثقافة الشهية ، ومرمى وجهاتها الصحيحة ، ونتيجة كفاحها فى رقى الإنسانية ، جاءت الشرائع لإحيائه فى النفوس وجعل علائق البشر منسوجة من خيوطه موثقة بقوته ، بثته فى تعاليمها ، واتخذته فى غايتها المرجوة ، ومرماها الأسمى :

فالصلاة طاعة ونظام ، واتحاد ووئام ، وأدب فى أجلى مظاهره ، وحسن سمت وتمام سكينة .

والزكاة شفقة وإحسان وأريحية وتطهير للنفوس من الشح ، وخدمة للإنسانية ، وحدب على الإخوة الضعفاء ، وحفظ للمجتمع من الانهيار والفناء .

والحج جهاد ونشاط وتضحية ، ومظهر من مظاهر الهمة والعزم ، ودرس للبطولات فى مواطنها ، وتلق للنفحات فى مهابطها ، وتعاون على البر والتقوى .

والصوم رياضة نفسية تعقب ضبطا للنفس ، وصفاء فى الروح ، واستعدادا لتحمل المشاق ، ولينا فى العرائك ، ودماثة فى الخلق ، وكسرا للشر ، وتمهيدا للخير ، وتمية لملكاته وإيقاظا للضمير الحى .

وهكذا كل التعاليم الدينية يتمخض إتقانها والعمل بها عن الخلق الكريم .

والخلق مظهر الطبيعة الإنسانية فى أفضل معانيها وأحسن مبانيها وأهله هم المقربون ، أهل الحظوة عند الله والناس ، وفى الحديث الشريف : " ألا أخبركم بأحبكم إلىّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة : الموطئون أكنافا الذين يألفون و يؤلفون " وهم قوة الدولة السياسية ، وحجة الله فى الأرض ، وهم مفاتيح الخير ، مغاليق الشر .

والخلق صفة كاملة تعصم صاحبها من النقيصة ، وتصعد بصاحبها فى مراقى الفلاح .

والتربية الخلقية تؤنس أهلها فى الغربة ، إذ لا غربة مع الأدب ولا وطن مع النقيصة ، وقد بعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليتم ما بدأ به الرسل عليهم السلام قبله من التربية الخلقية وأخذ الناس بمكارم الأخلاق التى عليها مدار العمران وسعادة البشر : " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " فكانت مظاهر التربية الخلقية جلية فى أقواله وأفعاله وخاصة نفسه وعامة أحواله ، تفعل فى مخالفيه فعل السحر ، وتبلغ من نفوسهم ما لم تبلغه المحافل بزخرفها ، فكان عليه السلام معجزا فى خلقه ، فكأن الله سبحانه وتعالى جعل شخص نبيه عليه السلام حاملا لما يؤيده و يزكيه من معجزة الخلق الكريم ، ولذا قال الله فيه : " إنك لعلى خلق عظيم " .

والمواهب العقلية والنبوغ والعبقرية أمور لا تزكو إلا بالخلق الكريم ، ولا يطيب جناها إلا بمصاحبته : فذوو العقول الثاقبة يفتخر بهم ، ولا يتكل عليهم ما لم يتحلوا بالخلق الكريم .

فالخلق يجعل من فى المناصب العالية أهلا لأن يوثق بهم ، ويستنام إليهم ، وتلقى فى أيديهم مقاليد الأمور ، فيحسنون القيادة ، ويردون بأممهم موارد محمودة الإصدار .

وجوهر الخلق الصدق والاستقامة والصلاح ، فإذا رافقتها قوة العزم كانت لصاحبها قوة لا تقاوم ، وتقوى فيه فعل الخير ومقاومة الشر واحتمال الخطوب والمصاعب والصبر الجميل .

وأزمنة الضيق والشدات أفضل الفرص لظهور الأخلاق : مثلها مثل الذهب الخالص يزداد بصهر النار صفاء ، وأهل الخلق الكريم يخرجون من الشدات أصفى ما يكونون جوهرا وأتم نعمة ، و يضربون بأعمالهم أحسن الأمثال فى الصبر والثبات .

واكتساب الفضائل ونيلها من طريق ممكن غاية كل عاقل . وجدير بنا أن نطلب الغايات السامية ، و إن لم نحصل عليها كلها . والشاب الذى لا يتشوف إلى الأعلى يحدر إلى الأسفل ، والنفس التى لا تطلب المعالى تميل إلى الدنايا :

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

والضمير الحى وليد التربية الخلقية الحقة ، فهو خير مرشد يحض على المعروف ، وينهى عن المنكر ، وبه تقوى الأخلاق يوما فيوما :

سئل شاب : " لم لم تأخذ شيئا من الكمثرى ولم يكن هناك أحد يراك ؟ فقال : كان معى ضميرى و يكره أن يرانى سارقا ! ! "

ومن لا ضمير له انحط شأنه ، وغشيته الذلة والمهانة ، فيقظة الضمير وحياته من أزكى مظاهر التربية الخلقية وأسماها .

والأخلاق متوقفة كثيرا على العادات ، فالعادة طبيعة ثانية ، والعادة تسهل كل أمر عسير ، وتدك الصعوبات ولو كانت جبالا .

فمن تعود أفعال الحكمة والرصانة كره الجهل والطيش فعلى كل ناشئ أن يجتهد فى القضاء على كل عادة ذميمة تغالبه ولا يسمح لنفسه بالتهاون فى ذلك خشية أن يغلب على أمره ، ولتكن عاداته موافقة للتربية الخلقية مسايرة للتعاليم الدينية التى ارتضاها الله لعباده وهو اللطيف الخبير .

تعود صالح الأعمال إنى رأيت المرء يلزم ما استعادا

والانطباع على الآداب والأخلاق الفاضلة ألزم من تحصيل العلوم والفنون ، فما رأينا شقوة تحل بالمرء ، وتظلم فى وجهه الدنيا و يتردى بسببها فى مهاوى الهلاك — جاءت من طريق الجهل بالعلوم والفنون ، وكم رأينا مصارع وممالك وزوال مجد وانثلال عروش وذهاب عزة كان سببها الافتقار الخلقى والتجرد من خلال الشرف وسجايا الخير .

فما سقطت الدولة الرومانية وقد كانت زاخرة بالعلماء والفلاسفة والحكماء والفنانين يوم تدهورها إلا بعد أن ضعف الخلق فيها وطغى الشر على الفضائل :

و إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن

والأدب ليس وقفا على أحد ، بل يتصف به العامل الفقير والأمير الخطير .

والإنسان كل الإنسان هو من طبع على المحامد والآداب ، الاستقامة شعاره ، والبر مسلكه ، والتكلم بالحق دأبه ، وكرم النفس مرماه ، والتواضع حليته ، والرأفة والحلم فى مواضعهما زينته ، والشجاعة تملأ قلبه ، لا يخاتل ولا يراوغ ، ولا يكابر ولا يمارى ، ولا يتطاول على الأصدقاء ، ولا يفرط فى معاملة الأهل ، و بخاصة الأمهات والآباء .

ومن أعلى مظاهر التربية الخلقية الوثوق بالنفس و إمضاء العزم فإن اتهام النفس وتزعزع العزم والتردد تفوت فرصا كثيرة ، وتبطئ بالمرء عن درك المطالب ، وتقعد به عن إحرازه الشرف لنفسه وامته وتفسد عليه رأيه :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن تترددا

فليكن همكم معشر الشباب التحلى بمكارم الأخلاق فى السر والعلن ، والتمسك بأهداب الفضيلة ما استطعتم إلى ذلك سبيلا ، إذ ذاك يطمئن الآباء على مستقبلكم ، ويمهد لكم الوطن غدكم ، وتسعد مصر بسامى أخلاقكم ، والله معكم ما حرصتم على الآداب ، واتخذتم منه حلاكم ، ولزمتموه لزوم من لاغنى له عنه طرفة عين ما

محمد أحمد جاد المولى